الأشهاد يوم القيامة من خلال القرآن والسُّنَّة

د. وليد محمد عبدالعزيز الحمد(*)

(*) أستاذ مساعد بقسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية الأساسية - الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب - دولة الكويت.

ملخص البحث:

تناول بحث الأشهاد يوم القيامة بعض مشاهد يوم القيامة التي يحتاج الإنسان فيها النجاة من هذه المشاهد، والمشاهد: هي الحجج والبراهين، والأشهاد التي تدين الإنسان على تقصيره اتجاه خالقه وربه في الدنيا، فإما أن تكون تلك المشاهد عليه وإما له، وتناول البحث الحديث عما قبل الأشهاد يوم القيامة، ومن ثم شهادة الأمة، وشهادة السماء والأرض، وذكر الأدلة على شهادتهما، وشهادة الأيدي والأرجل، وشهادة بقية الجوارح يوم القيامة.

وتناول البحث شهادة النبي صلى الله عليه وسلم على أمته مع ذكر الأدلة على ذلك، ثم الانتقال للحديث عن شهادة الكفار على أنفسهم يوم القيامة، والحديث عن الشاهد والمشهود، وخلاف العلماء في تفسير الشاهد والمشهود.

وفي ختام البحث الكلام على شهادة خير الشاهدين سبحانه وتعالى، فهو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، نسأل الله أن يشملنا برحمته، هو ولي ذلك والقادر عليه.

وفي الختام ذكر نتائج البحث، ومنها، العبد الأريب هو الذي يغتنم كل أوقاته وأحواله في طاعة سيده ومولاه، فلا يمر بشجر ولا حجر إلا جعل منه شاهداً له يوم القيامة، ولعل ما يؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران: ١٩٠،١٩١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٤، ٢٥]

المقدمة:

إن الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه، ونستغفرُه ونتوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهده اللهُ فلا مضل له، ومن يضللْ فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهَدْي هَدْيُ نبيِّنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ(١).

---

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح بها خطبه، وهي من رواية ابن مسعود رضي الله عنه. أخرجه أبو داود في "السنن" برقم (٢١١٨)، كتاب: النكاح، باب: خطبة الحاجة (٢/ ٢٣٨)، وصححه الألباني، انظر: "صحيح سنن أبي داود" (٢/ ٣٩٩).

فإني رأيت الناس- وأنا معهم- قد جرفتهم الحياة الدنيا، أو كادت، بزخرفها ومشكلاتها، بحلوها ومرها، بخيرها وشرها، فلا نحن نسلم من هذا ولا ذاك، إلا من رحم ربي.

ومن أجل ذلك؛ أحببت أن أُذَكِّرَ نفسي وإخواني بما تلين به القلوب، ويكبح به جماح النفوس الشاردة، ويكون زاداً في الطريق إلى الله تعالى، فرأيت أن خير وسيلة تذكرني وإخواني، وتفيقنا من غفلتنا هي التذكرة باليوم الآخر، الذي جعل الله عز وجل الإيمان به ركناً من أركان الإيمان، وفرق بالإيمان به بين المؤمن والكافر.

فالذي لا يتذكر اليوم الآخر، أو لا يستحضره، تتحول حياته إلى حياة مادية بحتة؛ يكذب، يخادع، يرتكب المعاصي، يرتكب الفواحش، يظلم، يقهر غيره... إلخ.

لكن إذا تَذَكَّرَهُ تحوَّلتْ نظرته إلى الحياة كلها؛ لأنه سيتذكر أن الموتَ قريبٌ؛ فالموت يأتي الإنسان في أي وقت ولا ينتظره، ولا يفرق بين الصغير والكبير، والغني والفقير، والصحيح والمريض.

لكن ماذا بعد الموت؟!

إذا تذكر الإنسان الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى، والحساب والجزاء، والميزان والصراط، وتذكر أن هناك عليه شهوداً يشهدون عليه يوم القيامة، سواء من نفسه، أم ممن حوله، أم غير ذلك، ثم بعد ذلك إما إلى الجنة وإما إلى النار - صلحت أحواله؛ فمثلاً إذا جاءه واحد وظلمه فإنه يصبر ويصابر، إذا دعته نفسه إلى المعصية تذكر عقاب الله سبحانه وتعالى... فحينئذ سيتحول - إن شاء الله تعالى - إلى إنسان إيجابي، يكثر خيره ويقلّ شره.

فكان هذا البحث الذي عنونت له بـ«الأشهاد يوم القيامة من خلال القرآن والسُّنة»، سائلاً الله تعالى أن ينفع به كلَّ من قرأه، أو سمع عنه، ويتقبله مني ومن كل من ساهم في إخراجه، سواء بالفعل أم بالقول، أم بالنية أم بالدعاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وإليك خطة البحث:

فقد جاء هذا البحث متضمناً: مقدمة، وتمهيداً، وتسعة مباحث:

المبحث الأول: ما قبل الشهود يوم القيامة.

المبحث الثاني: أمة الشهادة.

المبحث الثالث: شهادة السماء والأرض.

المبحث الرابع: شهادة الأيدي والأرْجُل.

المبحث الخامس: شهادة بقية الجوارح يوم القيامة.

المبحث السادس: شهادة النبي صلى الله عليه وسلم.

المبحث السابع: شهادة الكفار على أنفسهم يوم القيامة.

المبحث الثامن: الشاهد والمشهود.

المبحث التاسع: شهادة خير الشاهدين.

النتائج والمراجع.

وإني لأرجو الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات من أعان عليه، يوم نلقى الله عز وجل، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو حسبي ونعم الوكيل.

***

تمهيد

المعنى اللغوي للشهود:

يأتي لفظ الشهود في هذا البحث من الشهادة، والشهادة: خبَرٌ قاطع. تقول منه: شَهِد الرجل على كذا، وربما قالوا: شَهْدَ الرَجُلُ، بسكون الهاء للتخفيف، وقولهم: اشهدْ بكذا؛ أي: احْلِف. والمشاهدة: المعاينة. وشَهِدَهُ شُهوداً؛ أي: حَضَرَه، فهو شاهدٌ، وقومٌ شُهودٌ؛ أي: حُضورٌ، وهو في الأصل مصدرٌ، وشُهَّدٌ أيضاً.

وشَهِد له بكذا شَهادةً؛ أي: أدَّى ما عنده من الشهادة، فهو شاهِدٌ، والجمع: شَهْدٌ، وجمع الشهْد: شُهودٌ وأشهاد.

والشهيدُ: الشاهِدُ، والجمع: الشُهَداءُ، وأَشْهَدْتُهُ على كذا فَشَهِدَ عليه؛ أي: صار شاهِداً عليه.

وامرأةٌ مُشْهِدٌ- بلا هاء-: إذا حضر زَوْجُها. وامرأة مُغيبةٌ- وهذا بالهاء-؛ أي: غاب عنها زوجها. واسْتَشْهَدْتُ فلاناً: سألْتُه أن يشْهَدَ. وأَشْهَدَني إملاكَهُ؛ أي: أَحْضَرَني. والمَشْهَدُ: مَحْضَرُ الناسِ.

والشَهيدُ: القتيل في سبيل الله، وقد استُشْهِدَ فُلانٌ، والاسم الشهادة. والتشهُّد في الصلاة معروف. والشاهدُ: الذي يَخرج مع الولد كأنّه مُخاطٌ. ويقال: شُهودُ الناقة: آثار موضع مَنْتِجِها من دِمٍ أو سَلاً[(١)].

* * *

(١) انظر: "الصحاح" للجوهري (٢/ ٤٩٤)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

المبحث الأول
ما قبل الشهود يوم القيامة

أولاً - البعث من القبور:

الإيمان بالبعث من أعظم أصول الإيمان في هذا الدين، وهو: إحياء الله للموتى وإخراجهم من قبورهم، وقد دل عليه الكتاب والسنة والنظر:

أما الكتاب:

فلقول الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥١- ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وأما السنة:

فلحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله؛ فإنه يُنفخ في الصور فيَصعَق مَن في السماوات ومَن في الأرض إلا من شاء الله**». قال: «**ثم يُنفخ فيه مرة أخرى فأكون أول مَن بُعث - أو في أول مَن بُعث - فإذا موسى آخذ بالعرش ...**»(١). وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في «الصحيحين»: «... **فأكون أول من تنشق عنه الأرض**"(٢).

---

(١) "صحيح البخاري" (٣٤١٤)، و"صحيح مسلم" (٢٣٧٣)، وغيرهما.)
(٢) "صحيح البخاري" (٢٤١٢)، وصحيح مسلم برقم (٢٢٧٨).)

فدل الحديثان على بعث الله تعالى للأموات يوم القيامة من قبورهم إلى أرض المحشر، وفيهما فضيلة للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لكونه أول مَن يُبعث.

وأما النظر:

فقد دل النظر الصحيح على تقرير البعث؛ وذلك أن البعث هو إعادة للخلق، ومعلوم لكل عاقل أن الإعادة للشيء أهون من إنشائه وابتدائه، ولهذا قال الله تعالى في كتابه ردّاً على المنكر للبعث ووقوعه حينما قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ومقرِّراً إبداء خلق الإنسان ونشأته الأولى، ومثبتاً أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى، فقال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

فهذا دليل شرعي عقلي من كتاب الله للرد على كل معاند مكذب بالبعث، وهو دليل لا يستطيع رده.

حقيقة البعث:

وحقيقة البعث أن الله تعالى يجمع أجساد المقبورين التي تحللت ويعيدها بقدرته كما كانت، ثم يعيد الأرواح إليها، ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن رجلاً حضره الموت، فلما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا متُّ فاجمعوا لي حطباً كثيراً ثم أَوْرُوا**[1] **ناراً، حتى إذا أكلَتْ لحمي وخَلَصَتْ إلى عظمي فخذوها**

(١) أَوْرُوا: أي اقدحوا وأشعلوا. "فتح الباري" (٦/٥٢٢)، دار المعرفة- بيروت، ١٣٧٩هـ).

فاطحنوها، فذرُّوني في اليمِّ في يوم حارٍّ- أو راحٍ[١]-. فجمعه الله فقال: لم فعلت؟ قال: خشيتك. فغفر له[٢].

فدلت الآية والأحاديث على أن الله تعالى يعيد الأجساد نفسها، ويجمع رفاتها المتحلل، حتى تعود كما كانت، فيعيد إليها أرواحها، فسبحان من لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير!

كيفية البعث:

وقد جاء في السنة بيان كيفية البعث، وأن الله ينزل إلى الأرض ماءً فينبت به أهل القبور كما ينبت العشب، وقد دل على ذلك حديث أبي هريرة الذي أخرجه الشيخان: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ما بين النفختين أربعون**». قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أَبَيْتُ. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أَبَيْتُ. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أَبَيْتُ[٣]. قال: «**ثم يُنزل اللهُ من السماء ماءً، فيَنْبِتُون كما يَنْبُت البقل[٤]، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[٥]، ومنه يُرَكَّب الخلق يوم القيامة[٦]**».

فقد دل هذا الحديث على كيفية البعث، وأن أهل القبور يبقون في قبورهم أربعين بين النفختين: وهما نفخة الإماتة، ونفخة البعث، ولم يجزم الراوي

---

(١) يومٌ رَاحٌ؛ أي: ذُو رِيح، كقولهم: رجُلٌ مالٌ؛ أي: ذو مال. وقيل: يومٌ رَاحٌ وليلةٌ رَاحة؛ إذا اشتدَّت الريح فيهما. "النهاية في غريب الحديث والأثر" باب: الراء من الواو.)

(٢) "صحيح البخاري " (٣٤٧٩).

(٣) معناه: أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يوماً أو سنة أو شهراً، بل الذى أجزم به أنها أربعون. "صحيح مسلم بشرح النووي" (١٨/ ٩١)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

(٤) البقل هو: كل نبات اخضرت به الأرض. "شرح النووي على مسلم" (٥/ ٤٨).

(٥) عجب الذنب: مثل حبة خردل، والعجب: – بفتح العين وإسكان الجيم –؛ أي: العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب، وهو رأس العصعص، ويقال: له عجم بالميم، وهو: أول ما يخلق من الآدمي، وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه. انظر: "فتح الباري" (٨/ ٥٥٢). وانظر: "شرح النووي على مسلم" (١٨/ ٩٢).

(٦) "صحيح البخاري" (٤٩٣٥)، و"صحيح مسلم" (٢٩٥٥).

بتحديد الأربعين ما هي، وهل المراد أربعون يوماً أو شهراً أو سنة؟ على أنه جاء في بعض الروايات أنها أربعون سنة(١).

ثم إذا أراد الله بعث الخلائق أنزل مطراً من السماء - جاء في بعض الروايات أنه مثل مَنِيّ الرجال - فينبت أهل القبور من ذلك الماء كما ينبت العشب بعد أن فتت أجسادهم إلا عَجْبَ الذَّنَبِ، وهذا بخلاف الأنبياء؛ فإن أجسادهم لا تبلى، فتبين بهذا حقيقة البعث ووقته وكيفيته، والله أعلم(٢).

ثانياً - إثبات الحشر:

الحشر: هو الجمع، وذلك بأن تحشر الخلائق لموقف الحساب.

وقد دلت النصوص على حشر العباد بعد بعثهم إلى أرض المحشر حفاة عُراة غُرْلاً؛ قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عُراة غُرْلاً**». قلت: يا رسول الله، النساء والرجال جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال صلى الله عليه وسلم: «**يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض**»(٣). وهذا الحشر عام لجميع الخلائق.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: ((زعم بعض الشرَّاح أنه وقع عند مسلم: "**أربعين سنة**"، ولا وجود لذلك، نعم، أخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن الصلت عن الأعمش في هذا الإسناد: "**أربعون سنة**"، وهو شاذ، ومن وجه ضعيف، عن ابن عباس، قال: "**ما بين النفخة والنفخة أربعون سنة**")). ذكره في أواخر سورة "ص" اهـ. "فتح الباري" (٨/٥٥٢).

(٢) من كتاب "أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة" - ص ٢١٨ بتصرف يسير - لنخبة من العلماء، الطبعة: الأولى، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، سنة ١٤٢١هـ.

(٣) "صحيح البخاري" (٦٥٢٧)، و"صحيح مسلم" (٢٨٥٩).

وقد دلت النصوص على أن هناك حشراً آخر، إما في الجنة وإما في النار، فيُحشر المؤمنون إلى الجنة وفداً، والوفد: هم الركبان، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

أخرج الطبري عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: ((أمَا والله ما يحشر الوفد على أرجلهم، ولا يساقون سوقاً، ولكنهم يؤتَون بنوق لم يَرَ الخلائق مثلها، عليها رحال الذهب، وأزمتها الزبرجد، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة))(١). نسأل الله من فضله.

وأما الكفار فإنهم يُحشرون إلى النار على وجوههم عمياً وبكماً وصمّاً، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤]. قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]. نسأل الله السلامة والعافية(٢).

ثالثاً – الحساب والجزاء:

ويراد بالحساب والجزاء: أن يُوقف الحق تبارك وتعالى عباده بين يديه، ويعرفهم بأعمالهم التي عملوها، وأقوالهم التي قالوها، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر، واستقامة وانحراف، وطاعة وعصيان، وما يستحقونه على ما قدموه من إثابة وعقوبة، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين، وبشمالهم إن كانوا طالحين.

ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده، وما يقولونه له، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين، وشهادة الشهود ووزن للأعمال.

والحساب منه العسير، ومنه اليسير، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ والتبكيت، ومنه الفضل والصفح. ومتولي ذلك أكرم الأكرمين.

وهو ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين:

---

(١) "تفسير الطبري" (٨/ ٣٨٠).

(٢) "أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة" ص ٢٢٠.

أما الكتاب: فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢١- ٢٤]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

بل إن الله تعالى توعد من نسي الحساب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وأما السنة: فلقوله صلى الله عليه وسلم: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه تَرْجُمان**(١) **ولا حجاب يحجبه، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة**»(٢).

ولقوله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ نُوقِشَ الحساب عُذِّبَ**»(٣).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في بعض صلاته: «**اللهم حاسبني حساباً يسيرًا**». فقالت عائشة رضي الله عنها: ما الحساب اليسير؟ قال: «**أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه**»(٤).

---

(١) بفتح التاء وضمها، وهو المعبر عن لسان بلسان. "شرح النووي على مسلم" (٧/ ١٠١).

(٢) رواه البخاري (٧٠٧٤)، من حديث عدي بن حاتم، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

(٣) رواه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٧٤٠٦)، كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) رواه أحمد في "المسند" (٦/ ٤٨) برقم (٢٤٢٦١) بنحوه. مؤسسة قرطبة، القاهرة. وقال شعيب الأرنؤوط: ((حديث صحيح دون قوله: سمعت النبي صلى الله عليه و سلم يقول في صلاته: "**اللهم حاسبني حسابا يسيراً**"، فهذه الزيادة تفرد بها محمد بن إسحاق)).

وأما الإجماع: فقد أجمع المسلمون على ثبوت الحساب يوم القيامة.

والحساب عام لجميع الناس، إلا من استثناهم النبي صلى الله عليه وسلم، وهم سبعون ألفاً من هذه الأمة، منهم: عُكَّاشة بن محصن رضي الله عنه، يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، في الحديث المتفق عليه(١). وروى أحمد من حديث ثوبان مرفوعاً: أن مع كل ألف سبعين ألفاً، قال ابن كثير: ((حديث صحيح)). وذكر له شواهد(٢).

وينقسم الحساب إلى نوعين:

النوع الأول: الحساب اليسير: وهو التقرير، وهو خاص بالمؤمنين المرحومين، ومنه: المؤمن الذي عصى وستره الله ويريد أن يغفر له في الآخرة.

فبعض العباد يحاسبون حساباً يسيراً، وهؤلاء لا يناقشون الحساب؛ أي: لا يُدَقَّق، ولا يحقق معهم، وإنما تعرض عليهم ذنوبهم ثم يتجاوز لهم عنها. وهذا معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]، ففي «صحيح البخاري» و«مسلم» عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك**». فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك**»(٣).

قال النووي في شرحه للحديث: ((معنى «**نوقش الحساب**»: استقصي عليه))(٤).

---

(١) رواه البخاري (٥٣٧٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه مطولاً، ومسلم (٥٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) "تفسير ابن كثير" (٢/ ٩٥) دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٣) "صحيح الجامع"، كتاب: الرقاق، باب: من نوقش الحساب عذب، "فتح الباري" (١١/ ٤٠٠)، و"صحيح مسلم" (٤/ ٢٢٠٤) برقم (٢٨٧٦)، واللفظ للبخاري.

(٤) "النووي على شرح مسلم" (١٧/ ٢٠٨).

ونقل ابن حجر عن القرطبي في معنى قوله: «**إنما ذلك العرض**» قال: ((إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منَّة الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة))(١).

والمراد بالعرض – كما هو ظاهر من هذه الأحاديث – عرض ذنوب المؤمنين عليهم؛ كي يدركوا مدى نعمة الله عليهم في غفرانها لهم.

النوع الثاني: الحساب العسير: وهو حساب المناقشة، وهذا يشمل الكفار والمنافقين، وعصاة المؤمنين الذين لم يشأ الله أن يستر عليهم ويغفر لهم ذنوبهم، ويدخل فيهم المجاهرون بالمعصية، والمصرُّون عليها من غير توبة، وهو على رءوس الخلائق.

ففي الحديث عن صفوان بن محرز قال: كنتُ آخذاً بيد عبد الله بن عمر، فأتاه رجل، فقال: كيف سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه يستره من الناس، فيقول: أي عبدي، تعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، أي رب. حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: إني قد سترتها عليك في الدنيا وقد غفرتها لك اليوم**». قال: «**ثم أعطي كتاب حسابه، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**(٢).

يقول ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: ((قوله: «كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى»: هي ما تكلم به المرء، يُسمع نفسه ولا يسمع غيره، أو يسمع غيره سرّاً دون من يليه)).

قال الراغب: ((ناجيته: إذا ساررته، وأصله: أن تخلو في نجوة من الأرض – وهو ما ارتفع من الأرض –، وقيل: أصله من النجاة، وهي: أن تنجو بسرك

---

(١) "فتح الباري" (١١/ ٤٠٢).

(٢) "صحيح البخاري"، في كتاب: المظالم، باب: قوله تعالى: "ألا لعنة الله على الظالمين"، وانظر: "سنن ابن ماجه" (١/ ٦٥) رقم الحديث (١٨٣)، دار الفكر – بيروت، وصححه الألباني في "ظلال الجنة" (١/ ٣٢٧) برقم (٦٠٤)، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٣–١٩٩٣.

من أن يطلع عليه... والمراد بها – هنا – المناجاة التي تقع من الرب سبحانه وتعالى يوم القيامة مع المؤمنين))، وقال الكرماني: ((أطلق على ذلك النجوى؛ لمقابلة مخاطبة الكفار على رءوس الأشهاد هناك)).

قوله: «**فيقول: عملت كذا وكذا**». في رواية همام: «**فيقول: أتعرف ذنب كذا وكذا؟**». زاد في رواية سعيد وهشام: «**فيقرره بذنوبه**». وفي رواية سعيد بن جبير: «**فيقول له: اقرأ صحيفتك. فيقرأ ويقرره بذنب ذنب، ويقول: أتعرف أتعرف؟**».

قوله: «**فيقول: نعم**». زاد في رواية همام: «**أي رب**». وفي رواية سعيد وهشام: «**فيقول: أعرف**».

قوله: ثم يقول: «**إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**». في رواية سعيد بن جبير: «**فيلتفت يمنة ويسرة فيقول: لا بأس عليك، إنك في ستري لا يطلع على ذنوبك غيري**». زاد همام وسعيد وهشام في روايتهم: «**فيعطى كتاب حسناته**». ووقع في بعض روايات سعيد وهشام: «**فيطوى**». وهو خطأ، وفي رواية سعيد بن جبير: «**اذهب، فقد غفرتها لك**».

ووقع عند الثلاثة: «**وأما الكافر والمنافق**». ولبعضهم: «**الكفار والمنافقون**». وفي رواية سعيد وهشام: «**وأما الكافر فينادى على رءوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**».

وذكر في تفسير «هود» أن الأشهاد جمع: شاهد، مثل: أصحاب وصاحب، وهو أيضاً جمع: شهيد كشريف وأشراف.

قال المهلب: ((في الحديث: تفضل الله على عباده بستره لذنوبهم يوم القيامة، وأنه يغفر ذنوب من شاء منهم. بخلاف قول من أنفذ الوعيد على أهل الإيمان؛ لأنه لم يستثن في هذا الحديث ممن يضع عليه كنفه وستره أحداً إلا الكفار والمنافقين، فإنهم الذين ينادى عليهم على رءوس الأشهاد باللعنة)).

قلت: قد استشعر البخاري هذا، فأورد في كتاب المظالم هذا الحديث، ومعه حديث أبي سعيد: «**إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا؛ أُذِنَ لهم في دخول الجنة ...**» الحديث.

فدل هذا الحديث على أن المراد بالذنوب في حديث ابن عمر ما يكون بين المرء وربه سبحانه وتعالى، دون مظالم العباد، فمقتضى الحديث أنها تحتاج إلى المقاصة.

ودل حديث الشفاعة أن بعض المؤمنين من العصاة يعذب بالنار ثم يخرج منها بالشفاعة(١)، كما وَرَدَ تقريره في كتاب الإيمان(٢)، فدل مجموع هذه الأحاديث على أن العصاة من المؤمنين في القيامة على قسمين:

أحدهما: مَنْ معصيته بينه وبين ربه، فدل حديث ابن عمر على أن هذا القسم على قسمين:

قسم: تكون معصيته مستورة في الدنيا، فهذا الذي يسترها الله عليه في القيامة، وهو بالمنطوق.

وقسم: تكون معصيته مجاهرة، فدل مفهومه على أنه بخلاف ذلك.

والقسم الثاني: من تكون معصيته بينه وبين العباد، فهم على قسمين أيضاً:

قسم ترجح سيئاتهم على حسناتهم؛ فهؤلاء يقعون في النار ثم يخرجون بالشفاعة.

وقسم: تتساوى سيئاتهم وحسناتهم؛ فهؤلاء لا يدخلون الجنة حتى يقع بينهم التقاصُّ؛ كما دل عليه حديث أبي سعيد، وهذا كله بناء على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة أن يفعله باختياره، وإلا فلا يجب على الله شيء، وهو يفعل في عباده ما يشاء»(٣)،(٤).

---

(١) حديث الشفاعة برقم (٦١٩٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وانظر "الفتح" (١١/ ٤٣٢، وما بعدها).

(٢) انظر: "الفتح" (١/ ٢٢٦) عند شرح حديث (١٢٨).

(٣) انظر: "فتح الباري" لابن حجر، كتاب: المظالم، باب: قوله تعالى: "ألا لعنة الله على الظالمين".

(٤) انظر "القيامة الكبرى" لعمر سليمان الأشقر، مطبوعات دار النفائس بالأردن، وتطبعها دار السلام بمصر.

المبحث الثاني
أمة الشهادة

خص الله سبحانه الأمة الخاتمة – أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – بأن جعلها تشهد للأنبياء بأنهم أنذروا قومهم ونصحوا لهم، وتشهد على الأمم أن أنبياءهم قد بلغوهم، وإن تعجب فعجب أمر هؤلاء المكذبين، إنهم لم يكتفوا بأن كذبوا أنبياءهم في الدنيا، حتى أنكروا أنهم بلغوهم شيئاً يوم القيامة!

يقول ابن كثير في صدد الحديث عن المكذبين من قوم نوح: ((فقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ، والعناد البالغ في الدنيا، وهكذا في الآخرة؛ فإنهم يجحدون – أيضاً – أن يكون جاءهم رسول))[1].

وأخرج البخاري في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم، أي رب. فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم وأمته. فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذكره:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، والوسط: العدل[2].

ولا ننسى أن هذه الشهادة كما هي تكريم من الله لهذه الأمة الخاتمة، كذلك فهي مسؤولية عظيمة، تضاف إلى المسئوليات الجسام التي كلفت بها، فلا بد من رعايتها والقيام بها خير قيام، على الوجه الذي يرضي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ كما قال القائل:

قد هيئوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً؛ فتقيم بينهم العدل

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ١٢٤) دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

(٢) «صحيح البخاري» (٣١٦١).

والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها، وتقول: هذا حق منها، وهذا باطل.

إنها الأمة المتبوعة، لا التابعة التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها، وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحَكَم العدل بينهم... وفي الوقت الذي تشهد فيه على الناس؛ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي يشهد عليها؛ فيقرر لها موازينها وقيمها، ويحكم على أعمالها وتقاليدها، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة...

وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها... لتعرفها، ولتشعر بعظمتها، ولتقدر دورها حق قدره، وتستعد له استعداداً لائقاً... وإنها لَلأمة الوسط، بكل معاني الوسط، سواء من (الوساطة)؛ بمعنى: الحسن والفضل، أو من (الوسط)؛ بمعنى: الاعتدال والقصد، أو من (الوسط): بمعناه المادي الحسي.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾: في التصور والاعتقاد، لا تغلو في التجرد الروحي، ولا في الارتكاس المادي، إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبس به روح، وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها، في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع، بلا تفريط ولا إفراط، في قصد وتناسق واعتدال.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾: في التفكير والشعور، لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة... ولا تتبع كذلك كل ناعق، وتقلد تقليد القردة المضحك، إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول، ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب، وشعارها الدائم: الحقيقة ضالة المؤمن؛ أنَّى وجدها أخذها في تثبت ويقين»[(١)].

---

(١) انظر: «تفسير الظلال» لسيد قطب، سورة «البقرة» ص ٩٩، ج ١ موقع التفاسير.

قال الفخر الرازي: ((... قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ خطاب لجميع الأمة أولها وآخرها، من كان منهم موجوداً وقت نزول هذه الآية، ومن جاء بعدهم إلى قيام الساعة، كما أن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] يتناول الكل، ولا يختص بالموجودين في ذلك الوقت، وكذلك سائر تكاليف الله تعالى وأوامره وزواجره خطاب لجميع الأمة.

فإن قيل: لو كان الأمر كذلك لكان هذا خطاباً لجميع من يوجد إلى قيام الساعة، فإنما حكم لجماعتهم بالعدالة، فمن أين حكمت لأهل كل عصر بالعدالة حتى جعلتهم حجة على من بعدهم؟

قلنا: لأنه تعالى لما جعلهم شهداء على الناس، فلو اعتبرنا أول الأمة وآخرها بمجموعها في كونها حجة على غيرها لزالت الفائدة؛ إذ لم يبق بعد انقضائها مَن تكون الأمة حجة عليه، فعلمنا أن المراد به أهل كل عصر، ويجوز تسمية أهل العصر الواحد بالأمة، فإن الأمة اسم للجماعة التي تؤم جهة واحدة، ولا شك أن أهل كل عصر كذلك، ولأنه تعالى قال: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾، فعبر عنهم بلفظ النكرة، ولا شك أن هذا يتناول أهل كل عصر))(١).

ثم قال: ((اختلف الناس في أن الشهادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تحصل في الآخرة أو في الدنيا:

فالقول الأول: إنها تقع في الآخرة، والذاهبون إلى هذا القول لهم وجهان:

الأول، وهو الذي عليه الأكثرون: أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على أممهم الذين يكذبونهم، روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله تعالى الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم، فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في

(١) «التفسير الكبير» تفسير سورة «البقرة» ص ٣،ج ٢ طبعة الأولى.

كتابه، الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد عليه الصلاة والسلام، فيُسأل عن حال أمته؟ فيزكيهم ويشهد بعدالتهم، وذلك قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وقد طعن القاضي في هذه الرواية من وجوه:

أولها: أن مدار هذه الرواية عن أن الأمم يكذبون أنبياءهم، وهذا بناء على أن أهل القيامة قد يكذبون، وهذا باطل عند القاضي، إلا أنا سنتكلم على هذه المسألة في سورة «الأنعام» في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤].

وثانيها: أن شهادة الأمة وشهادة الرسول مستندة في الآخرة إلى شهادة الله تعالى على صدق الأنبياء، وإذا كان كذلك فلم لم يشهد الله تعالى لهم بذلك ابتداء؟

وجوابه: الحكمة في ذلك تمييز أمة محمد صلى الله عليه وسلم في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله تعالى، وتصديق جميع الأنبياء، والإيمان بهم جميعاً، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق، فلذلك يقبل الله شهادتهم على سائر الأمم، ولا يقبل شهادة الأمم عليهم؛ إظهاراً لعدالتهم، وكشفاً عن فضيلتهم ومنقبتهم.

وثالثها: أن مثل هذه الأخبار لا تسمى شهادة. وهذا ضعيف؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا علمت مثل الشمس فاشهد**[(١)]».

والشيء الذي أخبر الله تعالى عنه فهو معلوم مثل الشمس فوجب جواز الشهادة عليه.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤ / ٩٨)، وصححه، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: «**يا بن عباس، لا تشهد إلا على ما يضيء لك كضياء هذا الشمس**». وأومأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى الشمس. ولكن تعقبه الذهبي، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣١٦٣).

الوجه الثاني: قالوا معنى الآية: لتشهدوا على الناس بأعمالهم التي خالفوا الحق فيها. قال ابن زيد: ((الأشهاد أربعة:

أولها: الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، وقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

وثانيها: شهادة الأنبياء، وهو المراد بقوله حاكياً عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال في حق محمد صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وثالثها: شهادة أمة محمد خاصة، قال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

ورابعها: شهادة الجوارح، وهي بمنزلة الإقرار، بل أعجب منه. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ [النور: ٢٤]، وقال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥])).

القول الثاني: أن أداء هذه الشهادة إنما يكون في الدنيا، وتقريره: أن الشهادة والمشاهدة والشهود: هو الرؤية.

قلنا: الشهادة المعتبرة في الآية، لا التحمل؛ بدليل أنه تعالى اعتبر العدالة في هذه الشهادة، والشهادة التي يعتبر فيها العدالة هي الأداء، لا التحمل، فثبت أن الآية تقتضي كون الأمة مؤدين للشهادة في دار الدنيا، وذلك يقتضي أن يكون مجموع الأمة إذا أخبروا عن شيء أن يكون قولهم حجة، ولا معنى لقولنا:

الإجماع حجة إلا هذا. فثبت أن الآية تدل على أن الإجماع حجة من هذا الوجه أيضاً، واعلم أن الدليل الذي ذكرناه على صحة هذا القول لا يبطل القولين الأولين؛ لأنا بينا بهذه الدلالة أن الأمة لا بد وأن يكونوا شهوداً في الدنيا، وهذا لا ينافي كونهم شهوداً في القيامة أيضاً، على الوجه الذي وردت الأخبار به.

فالحاصل: أن قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إشارة إلى أن قولهم عند الإجماع حجة؛ من حيث إن قولهم عند الإجماع يبين للناس الحق، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾؛ يعني: مؤدياً ومبيناً، ثم لا يمتنع أن تحصل مع ذلك لهم الشهادة في الآخرة فيجري الواقع منهم في الدنيا مجرى التحمل؛ لأنهم إذا أثبتوا الحق عرفوا عنده مَن القابل ومَن الراد، ثم يشهدون بذلك يوم القيامة، كما أن الشاهد على العقود يعرف ما الذي تم وما الذي لم يتم، ثم يشهد بذلك عند الحاكم))(١).

ثم قال: ((دلت الآية على أن من ظهر كفره وفسقه، نحو المشبهة والخوارج والروافض، فإنه لا يعتد به في الإجماع؛ لأن الله تعالى إنما جعل الشهداء مَن وصفهم بالعدالة والخيرية، ولا يختلف في ذلك الحكم مَن فَسَقَ أو كَفَرَ بقول أو فعل، ومن كفر برد النص، أو كفر بالتأويل))(٢).

ثم قال: ((إنما قال: شهداء على الناس))، ولم يقل: (شهداء للناس)؛ لأن قولهم يقتضي التكليف، إما بقول، وإما بفعل، وذلك عليه لا له في الحال.

فإن قيل: لم أُخرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخراً؟

قلنا: لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر الاختصاص بكون الرسول صلى الله عليه وسلم شهيداً عليهم))(٣).

يقول صاحب «الكشاف»: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ [الحج: ٧٨]

---

(١) «التفسير الكبير» تفسير سورة «البقرة» ص ٣ ج ٢ الطبعة الأولى.
(٢) «التفسير الكبير» تفسير سورة «البقرة» ص ٣ ج ٢ الطبعة الأولى.
(٣) «التفسير الكبير» تفسير سورة «البقرة» ص ٣ ج ٢ الطبعة الأولى.

أنه قد بلغكم ﴿عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بأن الرسل قد بلغتهم، وإذ خصَّكم بهذه الكرامة والأثرة؛ فاعبدوه وثقوا به، ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه، فهو خير مولى وناصر))[(١)].

ويقول الإمام الماوردي: ((قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: يعني خياراً، من قولهم: فلان وسط الحَسَبِ في قومه، إذا أرادوا بذلك الرفيع في حسبه، ومنه قول زهير:

هُمْ وَسَطٌ يَرْضَى الإلهُ بِحُكْمِهِمْ إذَا نَزَلَت إِحْدَى اللَّيالي بِمُعَظَّمِ

والثاني: أن الوسط من التوسط في الأمور؛ لأن المسلمين تَوَسَّطُوا في الدين، فلا هم أهل غلوٍّ فيه، ولا هم أهل تقصير فيه؛ كاليهود الذين بدَّلوا كتاب الله وقتَّلوا أنبياءهم وكَذَبوا على ربهم، فوصفهم الله تعالى بأنهم وسط؛ لأن أحب الأمور إليه أوسطها.

والثالث: يريد بالوسط: عدلاً؛ لأن العدل وسط بين الزيادة والنقصان، وقد روى أبو سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾؛ أي: عَدْلاً[(٢)].

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: لتشهدوا على أهل الكتاب، بتبليغ الرسول إليهم رسالة ربهم.

والثاني: لتشهدوا على الأمم السالفة، بتبليغ أنبيائهم إليهم رسالة ربهم. وهذا مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن الأمم السالفة تقول لهم: كيف تشهدون علينا ولم تشاهدونا، فيقولون أعْلَمَنَا نبيُّ الله بما أُنْزِلَ عليه من كتاب الله[(٣)].

---

(١) «تفسير الكشاف» للزمخشري ص ٣٢٠ج ٤

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق بنحوه مختصراً.

والثالث: أن معنى قوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: لتكونوا مُحْتَجِّينَ على الأمم كلها، فعبر عن الاحتجاج بالشهادة، وهذا قول حكاه الزجاج.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: يكون الرسول شهيداً على أمته أنْ قد بلَّغ إليهم رسالة ربه.

والثاني: أنَّ معنى ذلك أنْ يكون شهيداً لهم بإيمانهم، وتكون (عليهم) بمعنى (لهم).

والثالث: أن معنى قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾؛ أي: مُحْتَجّاً))[1].

ثم يقول في موضع آخر: ((﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: ليكون الرسول شهيداً عليكم في إبلاغ رسالة ربه إليكم، وتكونوا شهداء على الناس تُبَلِغُونَهُم رسالة ربهم كما بلغتم إليهم ما بلغه الرسول إليكم.

الثاني: ليكون الرسول شهيداً عليكم بأعمالكم وتكونوا شهداء على الناس بأن رُسُلَهُم قد بَلَّغُوهم))[2].

---

(١) «النكت والعيون» تفسير سورة «البقرة» ص ١٦٤ ج ١ الطبعة الأولى.

(٢) «النكت والعيون» تفسير سورة «الحج» ص ٨٦ ج ٣ الطبعة الأولى.

المبحث الثالث
شهادة السماء والأرض

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٩].

هذه الآيات تتحدث عما أصاب فرعون وقومه لما أصمُّوا آذانهم عن سماع دعوة الحق، واستكبروا أن يستجيبوا لموسى وهارون عليهما السلام، فكانت هذه العقبة المريرة في الدنيا: الهلاك والغرق، وفي البرزخ: عذاب بالغدو والعشي، أما يوم القيامة فأشد العذاب؛ كما ذكر ذلك سبحانه في قوله: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

ولكن - هنا - في سورة «الدخان» ملمح عجيب، ألا وهو بكاء السماء والأرض، ولطالما عهدنا البكاء من الإنسان، أو ما فيه روح حولنا، وما كان ليدور بخَلَدنا يوماً أن السماء والأرض تشارك عالم الأحياء في صفة البكاء.

لكن ما دلالة هذا البكاء أو عدمه؟ إنه - هنا - يعني شهادة السماء والأرض للعبد أو عليه، على حسب أعماله التي يكسبها؛ إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشر.

ولذلك فإن العبد الأريب هو الذي يغتنم كل أوقاته وأحواله في طاعة سيده ومولاه، فلا يمر بشجر ولا حجر إلا جعل منه شاهداً له يوم القيامة، ولعل ما يؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: ((وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على

فَقْدِهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فَقَدَتْهُم؛ فلهذا استحقوا ألا يُنظروا ولا يُؤخروا؛ لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي في «مسنده»: عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما من عبد إلا وله في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكيا عليه**». وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[(١)].

وذُكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم))[(٢)].

ثم قال: ((قال سفيان الثوري: عن أبي يحيى القَتَّات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يقال: تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحاً. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد)).

وقال مجاهد أيضاً: ((ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً. قال[(٣)]: فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل؟)).

وقال قتادة: ((كانوا أهون على الله من أن تبكي عليهم السماء والأرض)).

---

(١) «مسند أبي يعلى» (٧/ ١٦٠) (٤١٣٣)، دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤– ١٩٨٤، ورواه الترمذي في «سننه» مختصراً، (٥/ ٣٨٠) (٣٢٥٥)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، وضعفه الألباني، وانظر: «ضعيف سنن الترمذي» (٣٢٥٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» سورة (الدخان) ص ٣٣٣ ج ١٢ ط ١.

(٣) القائل هو: أبو يحيى القتَّات، كما في تفسير «النكت والعيون» سورة «الدخان»، وفيه: ((قال أبو يحيى : فعجبت من قوله، فقال: أتعجب؟! وما للأرض ...)) ص٨، ج٤، ط ١.

وقال ابن أبي حاتم: ((حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المستورد بن سابق، عن عبيد المُكْتِب، عن إبراهيم قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قلت لعبيد: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه حيث يصعد عمله. قال: وتدري ما بكاء السماء؟ قلت: لا. قال: تحمَرُّ وتصير وردة كالدهان، إن يحيى بن زكريا لما قتل احمرَّت السماء وقطرت دماً، وإن حسين بن علي لما قتل احمرَّت السماء))(١).

وقال الرازي رحمه الله: ((قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وفيه وجوه:

الأول: قال الواحدي في «البسيط»: روى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل فيه عمله، فإذا مات فقداه وبكيا عليه**»، وتلا هذه الآية، قال: «**وذلك لأنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً فتبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء كلام طيب ولا عمل صالح فتبكي عليهم**»(٢). وهذا قول أكثر المفسرين.

القول الثاني: التقدير: فما بكت عليهم أهل السماء وأهل الأرض، فحذف المضاف، والمعنى: ما بكت عليهم الملائكة ولا المؤمنون، بل كانوا بهلاكهم مسرورين.

والقول الثالث: أن عادة الناس جرت بأن يقولوا في هلاك الرجل العظيم الشأن: إنه أظلمت له الدنيا، وكسفت الشمس والقمر لأجله، وبكت الريح والسماء والأرض. ويريدون المبالغة في تعظيم تلك المصيبة، لا نفس هذا الكذب.

---

(١) «تفسير ابن كثير»، سورة «الدخان» ص ٣٣٣ ج ١٢ ط ١.
(٢) سبق تخريجه ص٢١.

ونقل صاحب «الكشاف»: عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض**[١]»[٢].

وقال جرير[٣]:

الشمس طالعة ليست بكاسفة   تبكي عليك نجوم الليل والقمرا))[٤]

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٢/ ٣٥) مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ١٧٢)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ– مرسلاً.

(٢) «تفسير الكشاف» للزمخشري، سورة «الدخان» ص ٢٧٢ ج ٤.

(٣) «ديوان جرير» (ص٢٣٥) دار بيروت، بيروت.

(٤) «التفسير الكبير» سورة «الدخان» ص ٢٠٢ ج ٢٧ ط ١.

المبحث الرابع
شهادة الأيدي والأرجل

يقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا كان يوم القيامة أمر اللهُ جهنمَ فيخرج منها عُنق ساطع مظلم، ثم يقول الله:** ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ **[يس: ٦٠-٦٣]، امتازوا اليوم أيها المجرمون. فيتميز الناس ويجثون، وهي التي يقول الله تعالى:** ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **[الجاثية: ٢٨]**[(١)].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٦٣- ٦٧]: ((يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة، وقد برزَت الجحيم لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ أي: هذه التي حذرَتْكم الرسل فكذبتموهم، ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣- ١٥])).

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» ج ٢٠ ص ٥٤٢، ج ٢٤ص ٤١٩، وضعفه ابن رجب الحنبلي، مكتبة دار البيان – دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجرموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم بما عملت.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبة، حدثنا مِنْجَاب بن الحارث التميمي، حدثنا أبو عامر الأسدي، حدثنا سفيان، عن عُبيد المُكْتِب، عن الفُضَيْل بن عمرو، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «**أتدرون مم أضحك؟**». قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تُجِرْني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أجيز عليَّ إلا شاهداً من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حَسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً. فيختم على فِيهِ، ويُقال لأركانه: انطقي. فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسُحقاً، فعنكنَّ كنتُ أناضل**»(١).

وقد رواه مسلم والنسائي(٢)، كلاهما عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبي النضر، عن عُبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي، عن سفيان- هو الثوري-به. ثم قال النسائي: ((لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعي، وهو حديث غريب، والله تعالى أعلم)). كذا قال.

وقد تقدم من رواية أبي عامر عبد الملك بن عمرو الأسدي- وهو العَقَدِيّ- عن سفيان.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن بَهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/٢٥٥٩)، في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾، المكتبة العصرية - صيدا.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٧٦٢٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٦٥٣). دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إنكم تُدْعَون مُفَدَّمة أفواهكم بالفِدَام**[1]، **فأول ما يُسأل عن أحدكم فخذه وكتفه**». رواه النسائي عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، به[2].

وقال سفيان بن عيينة، عن سُهَيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث القيامة الطويل، قال فيه: «**ثم يَلقى الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك، آمنت بك وبنبيك وبكتابك، وصمت وصليت وتصدقت - ويثني بخير ما استطاع - قال: فيقال له: ألا نبعث عليك شاهدنا؟ قال: فيفكر في نفسه، مَن الذي يشهد عليه، فيُختَم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، وذلك المنافق، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك الذي سخط الله عليه**».

ورواه مسلم وأبو داود، من حديث سفيان بن عيينة، به بطوله[3].

ثم قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن عقبة بن عامر؛ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه: فَخذُه من الرِّجل اليسرى**[4]».

ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف، عن عبد الله بن المبارك، عن إسماعيل بن عياش، به، مثله[5].

وقد جَوَّد إسنادَه الإمامُ أحمدُ رحمه الله، فقال: حدثنا الحكم بن نافع،

---

(١) الفِدام: ما يُشَدّ على فَم الإبْرِيق والكُوز مِن خِرْقةٍ لتَصْفِيَة الشَّراب الذي فيه، والمعنى: أنهم يُمْنَعون الكلامَ بأفواهِهم؛ حتى تَتَكَّلم جوارِحُهم، فشَبَّه ذلك بالفِدام. «النهاية في غريب الحديث والأثر» باب (الفاء مع الدال).

(٢) النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٦٩).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٧٦٢٨) مطولاً، و«سنن أبي داود» (٤٧٣١)، دار الكتاب العربي، بيروت، مختصراً.

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/٣١٩٨).

(٥) «تفسير ابن جرير» (٢٠/٥٤٥).

حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عُبَيد الحضرمي، عمن حَدَّثه عن عقبة بن عامر؛ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه: فَخذُه من الرِّجل الشمال**»[1].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا يونس ابن عُبَيد، عن حُمَيد بن هلال قال: قال أبو بردة: قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «يُدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فَيَعْرِضُ عليه رَبُّه عملَه فيما بينه وبينه، فيعترف فيقول: نعم أيْ رب، عملتُ عملتُ عملتُ. قال: فيغفر الله له ذنوبه، ويستره منها. قال: فما على الأرض خَليقة ترى من تلك الذنوب شيئاً، وتبدو حسناته، فَوَدَّ أن الناس كلهم يرونها، ويُدعى الكافر والمنافق للحساب، فَيَعرضُ رَبُّه عليه عمله، فيجحده ويقول: أي رب، وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل. فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك أيْ رب ما عملتُه. فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه. قال أبو موسى الأشعري: فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى، ثم تلا ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥][2]، [3].

قال البيهقي: ((وروينا في حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث الرؤية قال: «**فيلقى العبد فيقول: أي فُلْ، ألم أُكْرِمْكَ وأُسَوِّدْكَ وأزوِّجْكَ وأُسخِّرُ لك الخيلَ والإبلَ وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ قال فيقول: بلى أي رب. قال: فيقول: أظننت إنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: إني اليوم أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل** - فذكر في السؤال والجواب مثل الأول - **ثم يلقى الثالث فيقول مثل ذلك، فيقول: آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك، وصليتُ وصمتُ وتصدقتُ. فيقال: الآن نبعث شاهدنا عليك فيفكر في نفسه: من الذي يشهد عليه؟**

---

(١) «مسند أحمد» (٤/ ١٥١) (١٧٤١٢)، قال الأرنؤوط: ((حسن لغيره، دون قوله: «**من الرجل الشمال**»، وهذا إسناد ضعيف؛ لإبهام الرجل الذي روى عن عقبة بن عامر)).

(٢) «تفسير ابن جرير» (٢٠/ ٥٤٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٨٧).

فيُختم على فِيهِ، ويقال لفخذه: انطقي. فتنطق فخذه ولحمه وعظمه بعمله؛ و ذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي سخط الله عليه».

أخبرناه محمد بن عبد الله، ثنا أبو بكر بن إسحاق، ثنا بشر بن موسى، ثنا الحميدي، ثنا سفيان، ثنا سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: عن النبي صلى الله عليه و سلم... بهذا الحديث، وهو مخرج في «كتاب مسلم»[١].

وفيه دلالة على أن بعضهم تشهد عليهم ألسنتهم، وبعضهم ينكر فيُختم على أفواههم وتشهد عليهم سائر جوارحهم، ويشبه أن يكون هذا الإنكار من المنافقين؛ كما في خبر أبي هريرة، ويشبه أن يكون منهم وممن شاء الله ومن سائر الكفار حين رأوا يوم القيامة، فيغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم لا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، ولا يغفر الشرك، قالوا: إن ربنا يغفر الذنوب، ولا يغفر الشرك، فتعالوا حتى نقول: إنا كنا أهل ذنوب، ولم نكن مشركين. فقال الله عز وجل: أما إذ كتموا الشرك فاختموا على أفواههم. فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعند ذلك عرف المشركون أن الله لا يُكتم حديثاً، فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ **[النساء: ٤٢].**

وهذا فيما روينا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه سئل عن ذلك؟ فذكره. وقد قال الله عز وجل في سورة «زلزلت»: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤].

وروينا عن أبي هريرة مرفوعاً: أنه سئل عن هذه الآية؟ فقال: «**أن تشهد على كل عبد وأمة بما عملوا على ظهرها، فتقول: عمِلْتَ كذا وكذا في يوم كذا وكذا. فذلك أخبارها**[٢]**.**

---

(١) برقم (٧٦٢٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٧٤) (٨٨٥٤)، وقال شعيب الأرنؤوط: ((إسناده ضعيف)).

ودلت الأخبار عن سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم على أن كثيراً من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب، وكثيراً منهم يحاسبون حساباً يسيراً، وكثيراً منهم يحاسبون حساباً شديداً))[١].

وفي قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس: ٦٣- ٦٥].

قال الفخر الرازي: ((في الترتيب وجوه:

الأول: أنهم حين يسمعون قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾: يريدون أن ينكروا كفرهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الإنكار، ويُنطق الله غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم.

الثاني: لما قال الله تعالى لهم: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ لم يكن لهم جواب، فسكتوا وخرسوا، وتكلمت أعضاؤهم غير اللسان.

وفي الختم على الأفواه وجوه:

أقواها: أن الله تعالى يُسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها، وينطق جوارحهم فتشهد عليهم، وإنه في قدرة الله يسير، أما الإسكات فلا خفاء فيه، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة، فكما جاز تحركه بها؛ جاز تحرك غيره بمثلها، والله قادر على الممكنات.

والوجه الآخر: أنهم لا يتكلمون بشيء؛ لانقطاع أعذارهم، وانتهاك أستارهم، فيقفون ناكسي الرءوس، وقوف القَنوط اليئوس، لا يجد عذراً فيعتذر، ولا مجال توبة فيستغفر.

وتكلم الأيدي: ظهور الأمور؛ بحيث لا يسع معه الإنكار، حتى تنطق به الأيدي والأبصار، كما يقول القائل: الحيطان تبكي على صاحب الدار. إشارة إلى ظهور الحزن، والأول الصحيح، وفيه لطائف لفظية ومعنوية:

---

(١) «شعب الإيمان» (١/ ٢٥٠).

أما اللفظية:

فالأولى منها: هي أن الله تعالى أسند فعل الختم إلى نفسه وقال: ﴿نَخْتِمُ﴾، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل؛ لأنه لو قال تعالى: ((نختم على أفواههم وتنطق أيديهم))؛ يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبراً وقهراً، والإقرار بالإجبار غير مقبول، فقال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾؛ أي: باختيارها بعدما يقدرها الله تعالى على الكلام؛ ليكون أدل على صدور الذنب منهم.

الثانية منها: هي أن الله تعالى قال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ جعل الشهادة للأرجل والكلام للأيدي؛ لأن الأفعال تسند إلى الأيدي. قال تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٣٥]؛ أي: ما عملوه، وقال: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥]؛ أي: ولا تلقوا بأنفسكم، فإذاً الأيدي كالعاملة، والشاهد على العامل ينبغي أن يكون غيره، فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود؛ لبعد إضافة الأفعال إليها.

وأما المعنوية:

فالأولى منها: أن يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين، وشهادة العدو على العدو غير مقبولة، وإن كان من الشهود العدول، وغير الصديقين من الكفار والفساق غير مقبول الشهادة، فجعل الله الشاهد عليهم منهم...

المسألة الثانية: الختم لازم الكفار في الدنيا على قلوبهم، وفي الآخرة على أفواههم، ففي الوقت الذي كان الختم على قلوبهم كان قولهم بأفواههم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠]، فلما ختم على أفواههم أيضاً لزم أن يكون قولهم بأعضائهم؛ لأن الإنسان لا يملك غير القلب واللسان والأعضاء، فإذا لم يبق القلب والفم تَعيَّن الجوارح والأركان))[1].

---

(١) «التفسير الكبير» سورة «يس» ص ٣٥ ج ٢٦ ط ١.

ويقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ١٩-٢٤].

قال الفخر الرازي: ((واعلم أنه تعالى لما بيّن كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا أردفه بكيفية عقوبتهم في الآخرة؛ ليحصل منه تمام الاعتبار في الزجر والتحذير، وقرأ نافع: ((نحشر)) بالنون، ((أعداءَ)) بالنصب، أضاف الحشر إلى نفسه، والتقدير: يحشر اللهُ عز وجل أعداءه الكفار من الأولين والآخرين، وحجته أنه معطوف على قوله: ﴿وَنَجَّيْنَا﴾، فيحسن أن يكون على وفقه في اللفظ، ويقويه قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٨٥]، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧].

وأما الباقون: فقرؤوا على فعل ما لم يسم فاعله؛ لأن قصة ثمود قد تمت، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ ابتداء كلام آخر، وأيضاً الحاشرون لهم هم المأمورون بقوله ﴿ٱحْشُرُوا۟﴾ [الصافات: ٢٢]، وهم الملائكة، وأيضاً أن هذه القراءة موافقة لقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، وأيضاً فتقدير القراءة الأولى: أن الله تعالى قال: ((ويوم نحشر أعداء الله إلى النار))، فكان الأولى على هذا التقدير أن يقال: ويوم نحشر أعداءنا إلى النار.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أعداء الله يحشرون إلى النار قال: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يحبس أولهم على آخرهم؛ أي: يوقف سوابقهم حتى يصل إليهم تواليهم، والمقصود بيان أنهم إذا اجتمعوا سئلوا عن أعمالهم.

ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التقدير: حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، وعلى هذا التقدير فكلمة ﴿مَا﴾ صلة، وقيل: فيها فائدة زائدة، وهي: تأكيد أن عند مجيئهم لا بد وأن تحصل هذه الشهادة؛ كقوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ [يونس: ٥١]؛ أي: لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به.

المسألة الثانية: روي أن العبد يقول يوم القيامة: «**يا رب العزة، ألست قد وعدتني أن لا تظلمني، فيقول الله تعالى: فإن لك ذلك، فيقول العبد: إني لا أقبل على نفسي شاهداً إلا من نفسي. فيختم الله على فيه، ويُنطق أعضاءه بالأعمال التي صدرت منه، فذلك قوله:** ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾». واختلف الناس في كيفية الشهادة، وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها، فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه.

والثاني: أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعاني، كما خلق الكلام في الشجرة.

والثالث: أن تُظهر تلك الأعضاء أحوالاً تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان، وتلك الأمارات تسمى شهادات، كما يقال يشهد: هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه ...))[1].

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي، سورة «يس» ص ٣٥ ج ٢٦.

المبحث الخامس
شهادة النبي صلى الله عليه وسلم

يقول الله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١، ٤٢].

وهذا نوع آخر من أنواع الشهادات المتعددة في اليوم الآخر بين يدي الله رب العالمين، وهو شهادة كل نبي على أمته، وشهادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم على الناس جميعاً.

قال الماوردي في «التفسير»: ((قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ وشهيد كل أمة نبيُّها، وفي المراد بشهادته عليها قولان:

أحدهما: أن يشهد على كل أمته بأنه بلغها ما تقوم به الحجة عليها. وهو قول ابن مسعود وابن جريج، والسدي.

والثاني: أن يشهد عليها بعملها، وهو قول بعض البصريين.

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾؛ يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشهادة على أُمته، روى ابن مسعود أنه قرأ على رسول الله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ ففاضت عيناه صلى الله عليه وسلم[١].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن الذين تمنوه من تسوية الأرض بهم، أن يجعلهم مثلها، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

---

(١) الحديث رواه البخاري في «صحيحه» (٤٧٦٣).

والثاني: أنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فصاروا في بطنها))(١).

وقال أيضاً: ((قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥]. فيه وجهان:

أحدهما: أخرجنا من كل أمة رسولاً مبعوثاً إليها.

الثاني: أحضرنا من كل أمة رسولاً يشهد عليها أن قد بلغ رسالة ربه إليها. قاله قتادة))(٢).

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨].

قال الفخر الرازي: ((قال المفسرون: ﴿شَاهِدًا﴾ تشهد على أمتك بما يفعلون، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾))(٣).

وقال الله تعالى مبيناً شهادة الأنبياء عموماً: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٤- ٨٩].

قال سيد قطب: ((والمشهد يبدأ بموقف الشهداء من الأنبياء؛ يدلون بما

---

(١) «النكت والعيون» (١/٤٨٨) سورة «النساء».

(٢) «النكت والعيون» (٤/٢٦٣) سورة «القصص».

(٣) «التفسير الكبير» سورة «الفتح» ص ٦٨ ج ٢٨، ط ١.

يعلمون مما وقع لهم في الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب، والذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع، ولا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء، وجاء وقت الحساب والعقاب.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النحل: ٨٥].

ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم في ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله، أو من دون الله، فإذا هم يشيرون إليهم ويقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ فاليوم يقرون: ﴿رَبَّنَا﴾، واليوم لا يقولون عن هؤلاء: إنهم شركاء لله، إنما يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾.

ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل، فإذا هم يجبهون عبادهم بالكذب في تقرير وتوكيد: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، ويتجهون إلى الله مستسلمين خاضعين ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾، وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئاً يعتمدون عليه في موقفهم العصيب: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾، وينتهي الموقف بتقرير مضاعفة العذاب للذين كفروا وحملوا غيرهم على الكفر وصدوهم عن سبيل الله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾، فالكفر فساد، والتكفير فساد، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم، وجريمة صد غيرهم عن الهدى، فضوعف لهم العذاب جزاء وفاقاً.

ذلك شأن عام مع جميع الأقوام، ثم يخصص السياق موقفاً خاصّاً للرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾))[1].

(١) «في ظلال القرآن» سورة «النحل» ص ٤٥٢، ج ٤.

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾: ((﴿شَهِيدًا﴾ نبيّاً يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق، والكفر والتكذيب، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار، والمعنى: لا حجة لهم. فدل بترك الإذن على أن لا حجة لهم ولا عذر، وكذا عن الحسن، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يسترضون؛ أي: لا يقال لهم: أرضوا ربكم؛ لأن الآخرة ليست بدار عمل.

فإن قلت: فما معنى ثم هذه؟

قلت: معناها أنهم يُمْنَون – يُبْتَلَون – بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها، وهو أنهم يمنعون الكلام، فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة، ولا إدلاءٍ بحجة.

وانتصاب ((اليوم)) بمحذوف، تقديره: واذكر يوم نبعث. أو: يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ كقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٤٠]))[١].

يقول صاحب «الظلال»: ((...ثم يختم الأوامر والنواهي، والتحضيض والترغيب، بمشهد من مشاهد القيامة؛ يجسم موقفهم فيه، ويرسم حركة النفوس والمشاعر كأنها شاخصة متحركة، على طريقة القرآن في مشاهد القيامة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١، ٤٢]، إنه يمهد لمشهد القيامة، بأن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإذن فهو العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه قيد شعرة، وأنه يضاعف الحسنات، ويؤتي فضلاً عنها أجراً –من لدنه– عظيماً، فهي الرحمة – إذن – لمن يستحقون الرحمة، والفضل المطلق لمن كانوا

(١) «تفسير الكشاف» سورة «النحل» ص ٥٥٤، ج ٢، ط١.

يرجون الفضل، بالإيمان والعمل، فأما هؤلاء، هؤلاء الذين لم يقدموا إيماناً، ولم يقدموا عملاً، هؤلاء الذين لم يقدموا إلا الكفر وسوء العمل، فكيف يكون حالهم يومذاك؟! كيف يكون الحال، إذا جئنا من كل أمة بشهيد- هو نبيها الذي يشهد عليها- وجئنا بك على هؤلاء شهيداً؟

وعندئذ يرتسم المشهد شاخصاً، ساحة العرض الواسعة، وكل أمة حاضرة، وعلى كل أمة شهيد بأعمالها، وهؤلاء الكافرون المختالون الفخورون، الباخلون المبخلون، الكاتمون لفضل الله، المراءون الذين لم يبتغوا وجه الله، هؤلاء هم نكاد نراهم من خلال التعبير! واقفين في الساحة وقد انتدب الرسول صلى الله عليه وسلم للشهادة! هؤلاء هم بكل ما أضمروا وأظهروا، بكل ما كفروا وما أنكروا، بكل ما اختالوا وما افتخروا، بكل ما بخلوا وبخَّلوا. بكل ما راءوا وتظاهروا، هؤلاء هم في حضرة الخالق الذي كفروا به، الرازق الذي كتموا فضله، وبخلوا بالإنفاق مما أعطاهم، في اليوم الآخر الذي لم يؤمنوا به، في مواجهة الرسول الذي عصوه... فكيف؟!!

إنها المهانة والخزي، والخجل والندامة، مع الاعتراف؛ حيث لا جدوى من الإنكار.

والسياق القرآني لا يصف هذا كله من الظاهر، إنما يرسم «صورة نفسية» تتضح بهذا كله، وترتسم حواليها تلك الظلال كلها، ظلال الخزي والمهانة، والخجل والندامة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾!

نحس بها عميقة، حية، مؤثرة، كما لا نحس من خلال أي تعبير آخر، وصفي أو تحليلي، وتلك طريقة القرآن في مشاهد القيامة، وفي غيرها من مواضع التعبير بالتصوير))(١).

قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾: ((وفيه مسائل:

---

(١) «في ظلال القرآن» لسيد قطب، تفسير سورة «النساء» ص ٣٨، ج ٢.

المسألة الأولى: روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لابن مسعود: «**اقرأ القرآن عليَّ**». قال: فقلت: يا رسول الله، أنت الذي علمتنيه! فقال: «**أحب أن أسمعه من غيري**». قال ابن مسعود: فافتتحت سورة «النساء»، فلما انتهيت إلى هذه الآية بكى الرسول صلى الله عليه وسلم، قال ابن مسعود: فأمسكت عن القراءة(١).

وذكر السدي أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم يشهدون للرسل بالبلاغ، والرسول صلى الله عليه وسلم يشهد لأمته بالتصديق، فلهذا قال: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وحَكى القرآن الكريم عن عيسى عليه السلام أنه قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

المسألة الثانية: من عادة العرب أنهم يقولون في الشيء الذي يتوقعونه: كيف بك إذا كان كذا وكذا؟ وإذا فعل فلان كذا؟ وإذا جاء وقت كذا؟ فمعنى هذا الكلام: كيف ترون يوم القيامة إذا استشهد الله على كل أمة برسولها، واستشهدك على هؤلاء؛ يعني: قومه المخاطبين بالقرآن، الذين شاهدَهم وعرف أحوالهم؟ ثم إن أهل كل عصر يشهدون على غيرهم ممن شاهدوا أحوالهم، وعلى هذا الوجه قال عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾.

ثم إنه تعالى وصف ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ يقتضي كون عصيان الرسول مغايراً للكفر؛ لأن عطف الشيء على نفسه غير جائز، فوجب

(١) رواه البخاري (٤٣٠٦)، ومسلم (١٩٠٥).

حمل عصيان الرسول على المعاصي المغايرة للكفر، إذا ثبت هذا فنقول: الآية دالة على أن الكفار مخاطبون بفروع الإسلام، وأنهم كما يعاقبون يوم القيامة على الكفر فيعاقبون أيضاً على تلك المعاصي؛ لأنه لو لم يكن لتلك المعصية أثر في هذا المعنى لما كان في ذكر معصيتهم في هذا الموضع أثر.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو: ﴿تُسَوَّىٰ﴾ مضمومة التاء خفيفة السين، على ما لم يُسم فاعله، وقرأ نافع وابن عامر: ((تَسَّوَّى)) مفتوحة التاء مشددة السين؛ بمعنى: تتسوى، فأدغم التاء في السين لقربها منها، ولا يكره اجتماع التشديدين في هذه القراءة؛ لأن لها نظائر في التنزيل، كقوله: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ﴾ [النمل: ٤٧]، ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ [يونس: ٢٤]، وفي هذه القراءة اتساع، وهو إسناد الفعل إلى الأرض.

المسألة الثالثة: ذكروا في تفسير قوله: ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ وجوهاً:

الأول: لو يدفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى.

والثاني: يودون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء.

الثالث: تصير البهائم تراباً فيودون حالها، كقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ فيه لأهل التأويل طريقان:

الأول: أن هذا متصل بما قبله.

والثاني: أنه كلام مبتدأ.

فإذا جعلناه متصلاً احتمل وجهين:

أحدهما: ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: يودون لو تنطبق عليهم الأرض ولم يكونوا كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم، ولا كفروا به، ولا نافقوا، وعلى هذا القول الكتمان عائد إلى ما كتموا من أمر محمد صلى الله عليه وسلم.

الثاني: أن المشركين لما رأوا يوم القيامة أن الله تعالى يغفر لأهل الإسلام ولا يغفر شركاً، قالوا: تعالَوا فلنجحد. فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين؛ رجاء أن يغفر الله لهم، فحينئذ يختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يعملون، فهنالك يودون أنهم كانوا تراباً، ولم يكتموا الله حديثاً.

الطريق الثاني في التأويل: أن هذا الكلام مستأنف، فإنَّ ما عملوه ظاهر عند الله، فكيف يقدرون على كتمانه؟!

المسألة الخامسة: فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

والجواب من وجوه:

الأول: أن مواطن القيامة كثيرة، فموطن لا يتكلمون فيه، وهو قوله: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وموطن يتكلمون فيه، كقوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨]، وقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فيكذبون في مواطن، وفي مواطن يعترفون على أنفسهم بالكفر ويسألون الرجعة، وهو قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧].

وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم وأرجلهم وجلودهم، فنعوذ بالله من خزي ذلك اليوم.

الثاني: أن هذا الكتمان غير واقع، بل هو داخل في التمني، على ما بَيَّنَّا.

الثالث: أنهم لم يقصدوا الكتمان، وإنما أخبروا على حسب ما توهموا، وتقديره: والله ما كنا مشركين عند أنفسنا، بل مصيبين في ظنوننا حتى تحققنا الآن))[١].

---

(١) «التفسير الكبير» سورة «النساء» ص ١٢٨، ج ٩، ط ١.

المبحث السادس
شهادة بقية الجوارح يوم القيامة

إذا كنت قد تكلمت فيما سبق عن شهادة الأيدي والأرجل على العبد أمام الله تعالى يوم القيامة، فإنني أذكر - هنا - باقي الجوارح التي تحدث القرآن الكريم عن شهادتها، مثل الألسنة والجلود، وغير ذلك:

قال الفخر الرازي: ((قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، ونظيره قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١]، وعندنا: البِنْيَة ليست شرطاً للحياة، فيجوز أن يخلق الله تعالى في الجوهر الفرد علماً وقدرة وكلاماً، وعند المعتزلة لا يجوز ذلك، فلا جرم، ذكروا في تأويل هذه الآية وجهين:

الأول: أنه سبحانه يخلق في هذه الجوارح هذا الكلام، وعندهم المتكلم فاعل الكلام، فتكون تلك الشهادة من الله تعالى في الحقيقة، إلا أنه سبحانه أضافها إلى الجوارح توسعاً.

الثاني: أنه سبحانه يبني هذه الجوارح على خلاف ما هي عليه ويلجئها أن تشهد على الإنسان، وتخبر عنه بأعماله. قال القاضي: ((وهذا أقرب إلى الظاهر؛ لأن ذلك يفيد أنها تفعل الشهادة)).

وثالثها: قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾، ولا شبهة في أن نفس دينهم ليس هو المراد؛ لأن ﴿دِينَهُمُ﴾ هو عملهم، بل المراد جزاء عملهم، و((الدين))؛ بمعنى: الجزاء؛ مستعمل، كقولهم: كما تَدِين تُدان. وقيل: الدين هو الحساب، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦]؛ أي: الحساب الصحيح، ومعنى قوله: ﴿ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: أن الذي نوفيهم من الجزاء هو القدر المستحق؛ لأنه الحق، وما زاد عليه هو الباطل، وقرئ: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ بالنصب، صفة للدين، وهو الجزاء، وبالرفع صفة لله[1].

---

(١) هي قراءة مجاهد، وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه: ((يُوَفِّيهِمُ اللهُ الحَقُّ دِينَهُمْ))، كما أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٤١/١٩).

وأما قوله: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾، فمن الناس من قال: إنه سبحانه إنما سمي بالحق؛ لأن عبادته هي الحق دون عبادة غيره. أو: لأنه الحق فيما يأمر به دون غيره. ومعنى ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ يؤيد ما قلنا؛ لأن المحق فيما يخاطب به هو المبين؛ من حيث يبين الصحيح بكلامه دون غيره، ومنهم: من قال: الحق من أسماء الله تعالى، ومعناه: الموجود؛ لأن نقيضه الباطل، وهو المعدوم، ومعنى ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ المظهر، ومعناه: أن بقدرته ظهر وجود الممكنات، فمعنى كونه حقّاً أنه الموجود لذاته، ومعنى كونه مبيناً أنه المعطي وجود غيره))[١].

ويقول صاحب «الظلال» في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]: ((وتنتهي الجولة على مصرع عاد وثمود، والإنذار بهذا المصرع المخيف المرهوب، ويتكشف لهم سلطان الله الذي لا ترده قوة، ولا يعصم منه حصن، ولا يبقي على مستكبر مريد.

والآن وقد كشف لهم عن سلطان الله في فطرة الكون؛ وسلطان الله في تاريخ البشر، يطلعهم على سلطان الله في ذوات أنفسهم، التي لا يملكون منها شيئاً، ولا يعصمون منها شيئاً من سلطان الله، حتى سمْعَهم وأبصارهم وجلودهم تطيع الله وتعصيهم في الموقف المشهود، وتكون عليهم بعض الشهود: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ [فصلت: ١٩- ٢٤].

إنها المفاجأة الهائلة في الموقف العصيب، وسلطان الله الذي تطيعه

---

(١) «التفسير الكبير» سورة «النور» ص ١١٣، ج ٢٣، ط ١.

جوارحهم وتستجيب، وهم يوصمون بأنهم أعداء الله، فما مصير أعداء الله؟! إنهم يحشرون، ويجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم كالقطيع! إلى أين؟ إلى النار! حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب، إذا شهود عليهم لم يكونوا لهم في حساب، إن ألسنتهم معقودة لا تنطق، وقد كانت تكذب وتفتري وتستهزئ.

وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم، لتستجيب لربها طائعة مستسلمة، تروي عنهم ما حسبوه سرّاً، فقد يستترون من الله، ويظنون أنه لا يراهم، وهم يتخفون بنواياهم، ويتخفون بجرائمهم، ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم، وكيف وهي معهم؟! بل كيف وهي أبعاضهم؟! وها هي ذي تفضح ما حسبوه مستوراً عن الخلق أجمعين، وعن الله رب العالمين! يا للمفاجأة بسلطان الله الخفي! يغلبهم على أبعاضهم فتلبي وتستجيب!

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾، فإذا هي تجبههم بالحقيقة التي خفيت عليهم، في غير مواربة ولا مجاملة، ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾!

أليس هو الذي جعل الألسنة هي الناطقة؟ وإنه لقادر على أن يجعل سواها، وقد أنطق كل شيء فهو اليوم يتحدث وينطق ويبين.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فإليه المنشأ وإليه المصير، ولا مفر من قبضته في الأول وفي الأخير، وهذا ما أنكروه بالعقول، وهذا ما تقرره لهم الجلود!

وقد تكون بقية التعليق من حكاية أقوال أبعاضهم لهم، وقد تكون تعقيباً على الموقف العجيب: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾.

فما كان يخطر ببالكم أنها ستخرج عليكم، وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لو أردتم! ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

وخدعكم هذا الظن الجاهل الأثيم وقادكم إلى الجحيم: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾

ثم يجيء التعقيب الأخير: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾، يا للسخرية! فالصبر الآن صبر على النار؛ وليس الصبر الذي يعقبه الفرج وحسن الجزاء، إنه الصبر الذي جزاؤه النار؛ قراراً ومثوى يسوء فيه الثواء!

﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾، فما عاد هناك عتاب، وما عاد هناك متاب، وقد جرت العادة أن الذي يطلب العتاب يطلب من ورائه الصفح والرضى بعد إزالة أسباب الجفاء، فاليوم يغلق الباب في وجه العتاب، لا الصفح والرضى الذي يعقب العتاب!))[1].

(١) «في ظلال القرآن»، سورة «فصلت» ص ٢٧٧ ج ٦.

المبحث السابع
شهادة الكفار على أنفسهم يوم القيامة

يقول الله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

قال الفخر الرازي: ((اعلم أن هذه الآية من بقية ما يذكره الله تعالى في توبيخ الكفار يوم القيامة، وبين تعالى أنه لا يكون لهم إلى الجحود سبيل، فيشهدون على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين، وإنهم لم يعذبوا إلا بالحجة، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال أهل اللغة: ((المعشر)): كل جماعة أمرهم واحد، ويحصل بينهم معاشرة ومخالطة، والجمع: المعاشر.

وقوله: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ اختلفوا هل كان من الجن رسول أم لا؟

فقال الضحاك: أرسل من الجن رسل كالإنس. وتلا هذه الآية، وتلا قوله: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤].

والقول الثاني، وهو قول الأكثرين: أنه ما كان من الجن رسول ألبتة، وإنما كان الرسل من الإنس. وما رأيت في تقرير هذا القول حجة إلا ادعاء الإجماع، وهو بعيد؛ لأنه كيف ينعقد الإجماع مع حصول الاختلاف، ويمكن أن يستدل فيه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]. وأجمعوا على أن المراد بهذا الاصطفاء إنما هو النبوة، فوجب كون النبوة مخصوصة بهؤلاء القوم فقط.

أما قوله: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾، فالمراد منه: التنبيه على الأدلة بالتلاوة وبالتأويل.

﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾؛ أي: يخوفونكم عذاب هذا اليوم. فلم يجدوا عند ذلك إلا الاعتراف؛ فلذلك قالوا: ﴿شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾.

فإن قالوا: ما السبب في أنهم أقروا في هذه الآية بالكفر، وجحدوه في قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؟

قلنا: يوم القيامة يوم طويل، والأحوال فيه مختلفة، فتارة يقرون، وأخرى يجحدون، وذلك يدل على شدة خوفهم واضطراب أحوالهم، فإن مَن عظُم خوفُه كثُر الاضطراب في كلامه.

ثم قال تعالى: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾، والمعنى: أنهم لما أقروا على أنفسهم بالكفر، فكأنه تعالى يقول: وإنما وقعوا في ذلك الكفر بسبب أنهم غرتهم الحياة الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾، والمراد: أنهم وإن بالغوا في عداوة الأنبياء والطعن في شرائعهم ومعجزاتهم، إلا أن عاقبة أمرهم أنهم أقروا على أنفسهم بالكفر.

ومن الناس من حمل قوله: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ بأن تشهد عليهم الجوارح بالشرك والكفر. ومقصودهم دفع التكرار عن الآية.

وكيفما كان، فالمقصود من شرح أحوالهم في القيامة زجرهم في الدنيا عن الكفر والمعصية.

واعلم أن أصحابنا يتمسكون بقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ على أنه لا يحصل الوجوب ألبتة قبل ورود الشرع، فإنه لو حصل الوجوب واستحقاق العقاب قبل ورود الشرع لم يكن لهذا التعليل والذكر فائدة))(١).

---

(١) «التفسير الكبير» سورة «الأنعام» ص ١١٧، ج ١٢، ط ١.

وقال في تفسير قوله تعالى: ((... ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين عند معاينة الموت.

واعلم أنه على جميع الوجوه، فالمقصود من الآية زجر الكفار عن الكفر؛ لأن التهويل يذكر هذه الأحوال مما يحمل العاقل على المبالغة في النظر والاستدلال والتسدد في الاحتراز عن التقليد))[١].

(١) «التفسير الكبير» سورة «الأعراف» ص ١٣، ج ١٤، ط ١.

المبحث الثامن
الشاهد والمشهود

قال الفخر الرازي، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]: ((وأما الشاهد والمشهود، فقد اضطرب أقاويل المفسرين فيه، والقفال أحسن الناس كلاماً فيه، قال: إن الشاهد يقع على شيئين:

أحدهما: الشاهد الذي تثبت به الدعاوى والحقوق.

والثاني: الشاهد الذي هو بمعنى الحاضر؛ كقوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ويقال: فلان شاهد، وفلان غائب.

وحمل الآية على هذا الاحتمال الثاني أولى، إذ لو كان المراد هو الأول لما خلا لفظ المشهود عن حرف الصلة، فيقال: مشهود عليه، أو: مشهود له. هذا هو الظاهر.

وقد يجوز أن يكون المشهود معناه: المشهود عليه، فحذفت الصلة، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ أي: مسؤولاً عنه.

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: إن حملنا الشهود على الحضور احتملت الآية وجوهاً من التأويل:

أحدها: أن المشهود هو يوم القيامة، والشاهد هو الجمع الذين يحضرون فيه. وهو مروي عن ابن عباس والضحاك، ويدل على صحة هذا الاحتمال وجوه:

الأول: أنه لا حضور أعظم من ذلك الحضور، فإن الله تعالى يجمع فيه خلق الأولين والآخرين من الملائكة والأنبياء والجن والإنس، وصرف اللفظ إلى المسمى الأكمل أولى.

والثاني: أنه تعالى ذكر اليوم الموعود، وهو يوم القيامة، ثم ذكر عقيبه: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]، وهذا يناسب أن يكون المراد بالشاهد من يحضر في ذلك اليوم من الخلائق، وبالمشهود ما في ذلك اليوم من العجائب.

الثالث: أن الله تعالى وصف يوم القيامة بكونه مشهوداً في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]. وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣]. وقال: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢]. وقال: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

وطريق تنكيرهما: إما ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير: ١٤]، كأنه قيل: وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود، وإما الإبهام في الوصف، كأنه قيل: وشاهد ومشهود لا يُكْتَنه وصْفُهما.

وإنما حسن القسم بيوم القيامة للتنبيه على القدرة؛ إذ كان هو يوم الفصل والجزاء، ويوم تفرد الله تعالى فيه بالملك والحكم. وهذا الوجه اختيار ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن بن علي، وابن المسيب، والضحاك، والنخعي، والثوري.

وثانيها: أن يفسر المشهود بيوم الجمعة، وهو قول ابن عمر، وابن الزبير؛ وذلك لأنه يوم يشهده المسلمون للصلاة ولذكر الله.

ومما يدل على كون هذا اليوم مسمى بالمشهود: خبران:

الأول: ما روى أبو الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أكثروا الصلاة عليَّ يوم الجمعة؛ فإنه يوم مشهود، تشهده الملائكة**»(١).

والثاني: ما روى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**تحضر الملائكة أبواب المسجد فيكتبون الناس، فإذا خرج الإمام طويت الصحف**»(٢).

وهذه الخاصية غير موجودة إلا في هذا اليوم، فيجوز أن يسمى مشهوداً

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٥٢٤)، (١٦٣٧)، (٢/ ٣٢٨)، وصححه الألباني في تحقيقه «مشكاة المصابيح» للتبريزي (١/ ٣٠٥) (١٣٦٦)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

(٢) رواه النسائي في «السنن» (١٣٨٦) بنحوه مطولاً، قال الألباني: ((صحيح)) وانظر: «صحيح سنن النسائي».

لهذا المعنى، قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وروي: أن ملائكة الليل والنهار يحضرون وقت صلاة الفجر(١). فسميت هذه الصلاة مشهودة؛ لشهادة الملائكة، فكذا يوم الجمعة.

وثالثها: أن يفسر المشهود بيوم عرفة، والشاهد من يحضره من الحاج، وحسُن القسم به تعظيماً لأمر الحج.

روي أن الله تعالى يقول للملائكة يوم عرفة: «**انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً، أتوني من كل فج عميق، أشهدكم أني قد غفرت لهم**»(٢) **وأن إبليس يصرخ ويضع التراب على رأسه؛ لما يرى من ذلك.**

والدليل على أن يوم عرفة مسمى بأنه مشهود: قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

ورابعها: أن يكون المشهود يوم النحر؛ وذلك لأنه أعظم المشاهد في الدنيا، فإنه يجتمع أهل الشرق والغرب في ذلك اليوم بمنى والمزدلفة، وهو عيد المسلمين، ويكون الغرض من القَسَم به تعظيم أمر الحج.

وخامسها: حمل الآية على يوم الجمعة ويوم عرفة ويوم النحر جميعاً؛ لأنها أيام عظام فأقسم الله بها، كما أقسم بالليالي العشر، والشفع والوتر، ولعل الآية عامة لكل يوم عظيم من أيام الدنيا، ولكل مقام جليل من مقاماتها، وليوم القيامة أيضاً؛ لأنه يوم عظيم، كما قال تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٥، ٦]. وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

---

(١) الحديث رواه البخاري (٥٣٠)، ومسلم (١٤٦٤)، بنحوه مطولاً، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/٣٠٥) (٨٠٣٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال شعيب الأرنؤوط: ((صحيح، وهذا إسناد حسن)).

ويدل على صحة هذا التأويل خروج اللفظ في الشاهد والمشهود على النكرة، فيحتمل أن يكون ذلك على معنى أن القصد لم يقع فيه إلى يوم بعينه فيكون معرفاً.

أما الوجه الأول: وهو أن يحمل الشاهد على من تثبت الدعوى بقوله؛ فقد ذكروا على هذا التقدير وجوهاً كثيرة:

أحدها: أن الشاهد هو الله تعالى؛ لقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، والمشهود هو التوحيد؛ لقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، والنبوة: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد:٤٣].

وثانيها: أن الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم، والمشهود عليه سائر الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الفتح: ٨].

وثالثها: أن يكون الشاهد هو الأنبياء، والمشهود عليه هو الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾.

ورابعها: أن يكون الشاهد هو جميع الممكنات والمحدثات، والمشهود عليه واجب الوجود، وهذا احتمال ذكرته أنا، وأخذته من قول الأصوليين هذا الاستدلال بالشاهد على الغائب، وعلى هذا التقدير يكون القسم واقعاً بالخلق والخالق، والصنع والصانع.

وخامسها: أن يكون الشاهد هو الملَك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ والمشهود عليه هم المكلفون.

وسادسها: أن يكون الشاهد هو الملك، والمشهود عليه هو الإنسان الذي تشهد عليه جوارحه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ

وَأَرۡجُلُهُم﴾ [النور: ٢٤]، ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [فصلت: ٢١]. وهذا قول عطاء الخراساني.

وأما الوجه الثالث: وهو أقوال مبنية على الروايات لا على الاشتقاق:

فأحدها: أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، روى أبو موسى الأشعري أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**اليوم الموعود: يوم القيامة، والشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، ويوم الجمعة ذخيرة الله لنا**»(١).

وعن سعيد بن المسيب مرسلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**سيد الأيام يوم الجمعة، وهو الشاهد، والمشهود يوم عرفة**»(٢).

وهذا قول كثير من أهل العلم؛ كعلي بن أبي طالب، وأبي هريرة، وابن المسيَّب، والحسن البصري، والربيع بن أنس.

قال قتادة: شاهد ومشهود: يومان عظمهما الله من أيام الدنيا، كما يحدث أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة.

وثانيها: أن الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر؛ وذلك لأنهما يومان عظمهما الله، وجعلهما من أركان أيام الحج، فهذان اليومان يشهدان لمن يحضر فيهما بالإيمان واستحقاق الرحمة، ورُوي أنه عليه السلام ذبح كبشين، وقال في أحدهما: «**هذا عمن يشهد لي بالبلاغ**»(٣). فيحتمل لهذا المعنى أن يكون يوم النحر شاهداً لمن حضره بمثل ذلك؛ لهذا الخبر.

وثالثها: أن الشاهد هو عيسى؛ لقوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٤٥٨). قال الألباني: ((حسن)). انظر: «صحيح الجامع» (٨٢٠٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٧٦/١) (٥٥٠٨)، والشافعي في «المسند» (٧٢/١) (٣٠٣)، وضعفه الألباني مرفوعاً، كما في «السلسلة الضعيفة» (٣٧٢٦).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٣٩١/٦) (٢٧٢٣٤) قال شعيب الأرنؤوط: ((إسناده ضعيف؛ لانقطاعه)).

ورابعها: الشاهد هو الله، والمشهود هو يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ [المجادلة: ٧].

وخامسها: أن الشاهد هو الإنسان، والمشهود هو التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وسادسها: أن الشاهد الإنسان، والمشهود هو يوم القيامة، أما كون الإنسان شاهداً؛ فلقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۛ﴾ وأما كون يوم القيامة مشهوداً؛ فلقوله: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

فهذه هي الوجوه الملخصة، والله أعلم بحقائق القرآن))[١]

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» سورة «البروج» ص ١٠٤، ج ٣١، ط ١.

المبحث التاسع
شهادة خير الشاهدين

وهذه هي خاتمة الشهادات وهي كما ترى أعلاها وأجلها؛ إذ إن الشهادة هنا مغايرة لكل ما سبق من شهادات؛ لأنها شهادة الله رب العالمين.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦].

قال صاحب «الكشاف»: ((﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ على أني بلغت ما أرسلت به إليكم، وأنكم كذبتم وعاندتم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ المنذِرين والمنذَرين ﴿خَبِيرًۢا﴾ عالماً بأحوالهم، فهو مجازيهم، وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفرة))(١).

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣].

قال الفخر الرازي: ((... ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾، وهو كلمة وعد للمطيعين، وكلمة وعيد للعصاة، والشهيد: الشاهد والمشاهِد، والمراد منه: إما علمه تعالى بجميع الجزئيات والكليات، وإما شهادته على الخلق يوم القيامة بكل ما عملوه. وعلى التقدير الأول: الشهيد: هو العالم. وعلى التقدير الثاني: هو المخبر))(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

قال القرطبي: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾؛ أي: شاهد لا يحتاج إلى شاهد. ﴿عَلَىٰ مَا

---

(١) «تفسير الكشاف» سورة «فاطر» ص ٦٠٤، ج ٣.
(٢) «التفسير الكبير»، سورة «النساء» ص ١٢٨، ج ٩، ط ١.

يَفۡعَلُونَ﴾ من محاربتك وتكذيبك. ولو قيل: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ بمعنى: هناك؛ جاز))[1].

قال ابن الجوزي: ((قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، قال الفراء: «ثم» هاهنا عطف، ولو قيل: معناها: هناك الله شهيد؛ كان جائزاً. وقال غيره: «ثم» هاهنا بمعنى الواو. وقرأ ابن أبي عبلة: ((ثَمَّ الله شهيد)) بفتح الثاء، يراد به: هنالك الله شهيد))[2].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» سورة «يونس» ص ٣٠٥، ج ٨.

(٢) «زاد المسير في علم التفسير» سورة «يونس» ص ٣، ج ٤، ط ٣.

نتائج البحث

١ - بعد هذا العرض والشرح لدور الأشهاد، فإن الدنيا تصبح كما ذكرها الله سبحانه وتعالى دار بلاء واختبار لا يمكن الغش فيه.

٢ - رحمة الله وسعت كل شيء: من عالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الحيوان، وعالم النبات... إلخ.

٣ - باب التوبة إلى الله عز وجل مفتوح أمام العبد بالرجوع إليه عز وجل والاستغفار والإنابة.

٤ - على العبد أن يسارع في طاعة الله تعالى ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن يجتنب معصيته؛ فقد قال المفسرون: ((وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا يُنظروا ولا يُؤخروا؛ لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم)).

٥ - الحيل التي يتخذها المؤمن لعقاب نفسه تكون بالتأنيب، والتوبيخ للنفس، والتوبة الصادقة.

٦ - الشهادة إما أن تكون وعداً للصالحين والصادقين، وإما أن تكون وعيداً للظالمين والكاذبين.

٧ - في مقابل الرحمة وفرصة التوبة والاستغفار إلا إنه لا مجال للفرار من الحقيقة، حقيقة الذات، إما صلاحاً، وإما طلاحاً.

٨ - دور الشهادة يبدأ من القبر وما فيه من منازل، وبعده اليوم الآخر وما فيه من كرب.

٩ - فإن العبد الأريب هو الذي يغتنم كل أوقاته وأحواله في طاعة سيده ومولاه، فلا يمر بشجر ولا حجر إلا جعل منه شاهداً له يوم القيامة ولعل ما يؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ

يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

١٠- نؤمن ونتيقن بأن الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً، بل يجعل على الكفرة والمنافقين والعصاة شهوداً من أنفسهم.

١١- المقصود من شرح أحوال الكفار والعصاة في القيامة وذكر الإشهاد عليهم: زجرهم في الدنيا عن الكفر والمعصية.

١٢- الاعتراف سيد الأشهاد، ولكن لا يغني شيئاً، وإنما هو وبال على الكافرين.

١٣- هناك شهادتان لم أتطرق لهما؛ لطول البحث: هما شهادة عيسى على قومه. وشهادة الملائكة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير.
- «تفسير النكت والعيون» للماوردي.
- «في ظلال القرآن» لسيد قطب.
- «التفسير الكبير» للرازي.
- «السنن الكبرى» للنسائي.
- «السنن الكبرى» للبيهقي.
- «سنن ابن ماجه».
- «مسند الإمام أحمد».
- «صحيح البخاري».
- «صحيح مسلم».
- «فتح الباري» لابن حجر.
- «الأهوال» لابن أبي الدنيا.
- «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة.
- «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي.
- «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» لمصطفى صادق الرافع.
- «إعجاز القرآن» الباقلاني.
- «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده» لابن رشيق القيرواني.